

دور علماء تلمسان في الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين)



أطروحة ماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط

إعداد: نبيل شريخي

إشراف: أ.د. خالد كبير علال

المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة ٢٠١٠

عرض

نبيل شريخي

المدرسة العليا للأساتذة

بوزريعة - الجمهورية الجزائرية



مقدمة

أنجبت مدينة تلمسان خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (١٤ و ١٥م) ثلة من العلماء، الذين كانوا زينة لها وتاجا لبلاد المغرب الإسلامي كلّها، وتبعاً لذلك أصبح هؤلاء العلماء في طبيعة علماء المغرب الإسلامي، وكان لهم دور على مختلف الأصعدة السياسية والعلمية والاجتماعية. وعلى الرغم من المكانة التي تبوأها علماء تلمسان، فإنّ الأدوار التي أدّوها في مختلف الجوانب لم تحظ بالدراسة الكافية، باستثناء بعض الدراسات التي أفردت بحثها في جانب واحد من هذه الأدوار، كما أمكن تتبّع هذه الأخيرة في سياق حديث تلك الدراسات عن علاقاتهم المختلفة، أو أثناء التعرّض بالدراسة للجانب السياسي والإداري للدولة الزيانية، أو الحياة الفكرية في حاضرة دولتهم تلمسان.

ومن هذا المنطلق يأخذ البحث في أدوار علماء تلمسان السياسية والاجتماعية والعلمية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (١٤ و ١٥م) مشروعيتها؛ وذلك لما يضيفه ويكشفه من أعمال قدّمها علماء تلمسان في موطنهم، وعلى مستوى بلاد المغرب الإسلامي. وجاء اختيار البحث عن تلك الأدوار في هذين القرنين مُرتبطاً بالوضع السياسي الذي ميّز بلاد المغرب خلالهما؛ فقد عرف فيهما الحفصيون والزيانيون والمرينيون تقعد الملك لهم، رغم بعض الفترات التي فقد فيها الزيانيون سلطتهم لصالح جيرانهم خاصّة الواقعيين إلى الغرب منهم، أو المرينيين الذين آلت دولتهم للسقوط في أواخر القرن التاسع الهجري (١٥م).

إشكالية الدراسة

وجاءت الدراسة للبحث والإجابة عن عدد من الإشكاليات التي تتمحور حول الأدوار التي أداها علماء تلمسان في الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية في بلاد المغرب الإسلامي، فبالنسبة لعلماء تلمسان، ما هي العوامل التي ساهمت في تنشئتهم وتكوينهم؟ وفيما يتعلق بالأوضاع السياسية، ما مدى علاقة علماء تلمسان بالحياة السياسية؟ وما هو تأثيرهم في المشهد السياسي وتأثرهم به؟ وما هي

مكانتهم وطريقة معاملتهم من طرف رجال السياسة؟ وما هي أهداف سعي وتنافس سلاطين تلك الفترة لتقريب العلماء منهم؟ وما موقف علماء تلمسان من ذلك؟

وبما أنّ هؤلاء العلماء هم أفراد من المجتمع التلمساني والمغربي عامة، فما هي طبيعة تلك العلاقة التي جمعهم مع مجتمعهم؟ وما هي الأعمال والخدمات التي أدّوها لأفرادهم؟ ومنزلتهم ومكانتهم في أعينهم؟ وعلى اعتبار أنّ هؤلاء علماء قبل كلّ شيء، فما هو دورهم العلمي؟ وما هو الجديد الذي جاءوا به؟ وهل كانت ميّزتهم الاجتهاد؟ أم انطلت عليهم أفة ذلك العصر المتميّزة بالتقليد؟ وما هي علاقتهم بالعلماء المعاصرين لهم؟ ومواقفهم تجاه القضايا التي ميّزت عصرهم؟

منهج الدراسة

وتمثّل المنهج الذي اتّبناه في دراستنا في منهج الجمع والوصف والتحليل والإحصاء بدرجات مختلفة، فعمدنا في المرحلة الأولى إلى استقراء المادة التاريخية من المصادر التي أرّخت لفترة الدراسة، واستخلاص ما له علاقة بها، ثمّ تبويبها وفقاً لخطة الموضوع، كما لجأنا إلى المنهج الوصفي والإحصائي والتحليلي أثناء عرض أدوار علماء تلمسان في الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية، ورأينا أنّه الكفيل بإبرازها والحكم عليها.

فصول الدراسة

اشتملت الدراسة على أربعة فصول، تناول الفصل الأوّل الأوضاع العامّة في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (١٤ و ١٥م) باعتبارها وسيلة للتعرف على الوسط الذي ندرس فيه أدوار علماء تلمسان. وتبيّن لنا من خلاله أنّ الأوضاع السياسية في بلاد المغرب الإسلامي تميّزت بعدم الاستقرار في أغلب فتراتها، وكان أهم أسباب ذلك تنافس الدول الثلاث . الحفصية والزيانية والمرينية . فيما بينها، كما أدركنا من استعراض الأوضاع الاجتماعية تشابهاً كبيراً في تركيبة المجتمع المغربي وعادات وتقاليد وسلوكات أفرادها. أمّا بالنسبة للأوضاع العلمية فإنّها لم تتأثر



أكد إمامهم بمختلف العلوم وبأهم تلك المكانة العالية بين أهل العلم في تلك الفترة، وفي فترات لاحقة بعد وفاتهم.

نتائج الدراسة

وقد خرجنا من خلال دراستنا هذه إلى جملة من النتائج التي كانت إجابة عن الإشكاليات المطروحة في بدايتها، نجملها فيما يلي:

أن العوامل التي ساهمت في تنشئة وتكوين علماء تلمسان الذين برزوا خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (١٤ و ١٥م) كانت متنوّعة؛ فقد اعتبرت الأسرة التلمسانية العلم هو السؤدد والطريق الذي يجب أن يسلكه أبناؤها فحثهم على طلبه، كما كان للبيئة العلمية التي نشأ فيها هؤلاء العلماء، وقيامهم بالرحلة العلمية وحزرة تنقلهم في أقطار بلاد المغرب، إضافة إلى عناية السلطة السياسية بالعلم وأهله، كلّها عوامل تضافرت في نبوغ علماء تلمسان.

وأقام عدد من علماء تلمسان علاقات بالسلطة السياسية الحاكمة في بلاد المغرب، كانت في أغلبها برغبة من هذه السلطة. الممثلة في الزيانية والمرينية والحفصية. التي أرادت باحتضانها للعلماء وتقريبها منهم منافسة جيرانها وكسب رضا الرعية عنها بذلك، وما أكد تلك النية هو تقلّب السلاطين على العلماء في أغلب الأحيان. كما لم يثبت العلماء في علاقاتهم السياسية على حال واحدة؛ فكثيرًا ما وجدنا علماء يتنقلون من بلاط إلى آخر ناقلين معهم ولأهم وبيعهم؛ ممّا جعل ربط العلماء لتلك العلاقات يُفسّر في كثير من الأحيان في إطار المصلحة والجري وراء متاع الدنيا منها.

وأتضح في مقابل ذلك أنّ فريقا آخر من علماء تلمسان اعتزل الحياة السياسية وفضّل عدم الاقتراب من ساحتها رغم ما عرض عليه من أجل تقريبه إليها، كما أفرزت مشاركة بعضهم فيما إلى الندم والحزن على ذلك، وتطبيق التقلّب في قصورها ومكائدها طلاقًا بائنا، خاصّة أنّ هؤلاء العلماء لم يسلموا في أغلبهم من غضب السلاطين وسخطهم؛ والذي أدّى في الكثير من الأحيان إلى مطاردتهم والإرسال في البحث عنهم، والقبوع في سجونهم. وأخذت مشاركة علماء تلمسان في الحياة السياسية عدّة مظاهر؛ فقد كان تولي مختلف المناصب، وقيادة الوفود والسفارات، وتقديم البيعة للسلاطين، والسعي لمدهم وبيان شرف أسرهم عند بعضهم، وحضور مجالسهم واحتفالاتهم، كلّها أدلّة على تلك المشاركة.

أمّا عن الدور الذي قام به علماء تلمسان من خلال مشاركتهم في الحياة السياسية ببلاد المغرب ومدى تأثيرهم في أحداثها، فإنّه لم يرق في الغالب إلى تغيير هذه الأخيرة؛ فلقد كان احتلال مدينة تلمسان وحصارها. مثلاً. عدّة مرّات واقعًا عايشه علماء تلمسان دون أن يكون لهم دورٌ فعّال في رفعه، بسبب تحوّلهم إلى صف المحتل والمنتصر أحيانًا، أو بعدم تعاملهم مع هذه الأحداث بأكثر فعالية وإصرار أحيانًا أخرى، كما أنّ سعيهم في إيقاف الصراعات الخارجية والخلافات الداخلية لم يُكتب له التوفيق في الكثير من الأحيان.

كثيرًا بالوضع السياسي وكانت في عمومها مزدهرة خاصّة في القرن الثامن الهجري (١٤م).

وتطرّقنا في الفصل الثاني من الدراسة إلى دور علماء تلمسان في الحياة السياسية ببلاد المغرب الإسلامي، والذي صدرناه بعلاقتهم بالسياسيين وميزتها، ثمّ الخدمات التي قدّموها للسلطة السياسية في بلاد المغرب ومظاهرها، وأنهبنا الفصل بعرض دور علماء تلمسان في العلاقات السياسية والعسكرية التي ربطت بين دول المغرب، ودورهم في العلاقات الداخلية في هذه الدول. وقد تجلّى لنا أنّ العلاقات التي ربطها علماء تلمسان مع السلطة السياسية في بلاد المغرب لم تستقرّ على حال وتحكمت فيها عدّة عوامل وظروف، كما أمكننا الوقوف على مختلف الأدوار والأعمال التي ساهم بها العلماء في المشهد السياسي، فكان أداؤهم للبيعة، وتوليمهم للمناصب السياسية، والمشاركة في الاحتفالات الرسمية للدولة، والتوجّه في السفارات والوفود، وحمل السلاح في المعارك، عاكسًا لتلك الأدوار والمشاركات لعلماء تلمسان في الحياة السياسية. لكن في المقابل فضّل فريق منهم الابتعاد أو اعتزال السياسة حتى وإن اضطر إلى الفرار.

أمّا الفصل الثالث؛ فقد أفردناه للبحث عن دور علماء تلمسان في الحياة الاجتماعية ببلاد المغرب، وتضمّن حياة العلماء الاجتماعية وعلاقاتهم الأسرية وبأفراد مجتمعهم، كما تمّ فيه عرض مختلف الخدمات التي قدّمها علماء تلمسان للمجتمع، وموقفهم من القضايا التي شغلت أفرادهم خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (١٤ و ١٥م). وتبيّن لنا منه أنّ علماء تلمسان أقاموا علاقات اجتماعية وطيدة مع أفراد مجتمعهم، جعلتهم يهتمون باحتياجاتهم ويُقدّمون على قضائها لهم حسب مقدراتهم، ومن خلال وظائفهم. كما استغل بعضهم منزلته وعلاقته بالسلطة السياسية لتقديم خدمات وإزالة عثرات بعض أفراد المجتمع أمام السلطان. إضافة إلى ما أظهره من تعاطف ومواساة للفقراء والمحتاجين، خاصّة في أوقات الحاجة التي كثيرًا ما تعرّض لها هؤلاء في بلاد المغرب زمن الأوبئة والمجاعات، وقد صاحب ذلك تواضعًا وانسباطًا منهم لجميع أفراد المجتمع؛ ممّا جعلت مكانتهم ومنزلتهم الاجتماعية تحظى بالسمو والرفعة، كما قوبلت خدماتهم تلك بالاحترام والتقدير والامتنان.

وقد عالجتنا في الفصل الرابع دور علماء تلمسان في الحياة العلمية ببلاد المغرب، وفي بدايته قمنا بإحصاء علماء تلمسان وتصنيفهم حسب العلوم التي برعوا فيها، ثمّ تطرّقنا إلى مختلف الأنشطة العلمية التي قام بها العلماء من تدريس، وتأليف، ومناقشات علمية، ممّا أجلى لنا الأدوار التي قام بها علماء تلمسان في الجانب العلمي. وكان دورهم العلمي في الحياة العلمية ببلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (١٤ و ١٥م) متنوّعًا؛ فلم يقتصر على جانب واحد، وإنّما كان ذلك تدريسيًا وتأليفيًا ومناقشة للمسائل والقضايا العلمية التي أثّرت في عصرهم، وهو ما



أحصينا ثمانية وستين عالماً تلمسانياً عاشوا خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (١٤ ١٥ م)، كان أغلبهم له إلمامٌ بأكثر من علم. وتجلّى الدور العلمي للعلماء من خلال بثّمهم لمختلف العلوم التي انبثرت لها مجالسهم العلمية في مدارس تلمسان وبلاد المغرب ومساجدها، إضافة إلى بيوتهم والمجالس السلطانية. وقد بلغ عدد العلماء المدرّسين ثلاثة وأربعين مدرّساً؛ ونتيجة ذلك عرفت مدينة تلمسان توافد عدد كبير من الطلبة، كما كانت إقامة علماء تلمسان بمختلف المدن المغربية فرصة ثمينة أخرى للطلبة للالتقاء بهم والنهل من علومهم.

كما عكس الإنتاج العلمي والتأليف في مختلف العلوم تلك المكانة العلمية لعلماء تلمسان، بلغ عددها مائة وأربعة وتسعين مؤلفاً، مائة وثمانية عشر منها في العلوم الدينية، وكان انتشار هذه المؤلفات وتدرّسها واستعمالها من طرف طلبة العلم وأهله في بلاد المغرب يدلنا على القيمة العلمية لها؛ إلا أنّ ما يؤخذ عنها هو سيطرة المختصرات والحواشي التي جاوز عددها التسعين؛ ممّا جعل أعمالهم وإنتاجهم العلمي يوصف بالتقليد وإعادة ما ألف من قبل. وأظهرت مشاركة علماء تلمسان في النقاشات والمناظرات العلمية فيما بينهم ومع علماء بلاد المغرب الآخرين عن مظهر ودور آخر لهم في الحياة العلمية، فقد أثارت العديد من القضايا العلمية والفكرية نقاشاً كانوا أحد طرفيه. واحتضنت تلك المناظرات مجالس علمية خاصّة، كما كانت المراسلات العلمية وسيلة أخرى لتبادل الآراء فيها، وإضافة إلى إظهارها لسعة علم علماء تلمسان فإنّها من جهة أخرى أبرزت أخلاقهم وحسن معاملتهم.

ورغم معارضة عدد من العلماء للتقليد الذي طبع الفترة التي عاشوا فيها، ووُصّف عدد آخر منهم بالاجتهاد والتميّز ببعض الآراء العلمية، فإن ذلك لم يرق إلى ما هو مطلوب منهم على الصعيد العملي؛ فقد جاءت مؤلفاتهم العلمية لتؤكد التقليد الذي انطلق على عدد كبير منهم ونفى عنهم صفة الاجتهاد.

خاتمة

وخلّاصة الدراسة: أنّ ما قمنا به في بحثنا قد كشف عن بعض الجوانب من حياة علماء تلمسان، والأدوار التي قدّموها في الميادين السياسية والاجتماعية والعلمية، إلا أنّ مواصلة البحث والسير في أغوار بحر هؤلاء العلماء سيضيف معلومات واستنتاجات أخرى في هذا الجانب، خاصّةً إذا توفرت موارد أخرى أمام الباحث لم تستفد منها هذه الدراسة.

وتبيّن لنا من جهة أخرى؛ أنّ علماء تلمسان عاشوا حياة اجتماعية عادية؛ فقد كانت الأسرة هي المنشأ والمكوّن الأوّل لهم، ونظروا إليها ولأفرادها نظرة احترام وتقدير ورعاية، كما كانت لهم مخالطة لأفراد مجتمعهم وربطتهم بهم علاقات وصلات وطيدة، عاملاًهم أثناءها بالاحترام والأخلاق الحسنة. ولم يكن انشغالهم بالعلم والسياسة ليُبعدهم عن الاهتمام بشؤون المجتمع، فكثيراً ما سخر العلماء المناصب التي شغلوها وقرّبهم من السلطة السياسية لقضاء حاجيات أفراد المجتمع وتنفيذ كُرهم من خلالها.

وقدّم علماء تلمسان خدمات جليلة لأفراد مجتمعهم، لم تقتصر على مواطنهم تلمسان فحسب بل شملت بلاد المغرب كلها؛ فانصبوا لعملية التعليم وسخّروا في ذلك بيوتهم وحوانيتهم وقاموا بإيواء طلبتهم وإكرامهم، كما كان من أشكال تلك الخدمات إفتاء الأفراد في ما علق لهم في شؤون حياتهم، والحكم في قضاياهم وخلافاتهم، والعمل على إصلاح مجتمعهم بمحاربة الأخلاق السيئة والسلوكات المنحرفة التي وقع فيها بعضهم.

وأكد وقوف العلماء مع أفراد مجتمعهم في المحن والشدائد التي تعرّضوا لها، على الاندماج الذي عاشوه مع مختلف فئات المجتمع وقرّبهم منهم، وكانت المجاعات والأوبئة التي كثيرا ما تكرّرت تُعتبر محكاً حقيقياً أبان فيها العالم عن شفقتة على أحوال مجتمعه والسعي لتجاوز مُلّماته، حتى وإن كان ذلك بالتفريط في حاجته والإيثار بنفسه، كما أكد هذا العطف سَعْمهم لرفع المغارم والضرائب عنهم واستغلالهم لعلاقاتهم السياسية لتحقيق ذلك.

وإذا ما قارنّا بين دور علماء تلمسان في الحياة الاجتماعية مع ما سبقها من دورهم في الحياة السياسية أو ما يتبعها في الحياة العلمية فإننا نلاحظ تواضعاً لهذا الدور، ويمكن تفسيره بالوضع الاجتماعي للعلماء أنفسهم؛ فلقد كان الفقر والحاجة مُلازمين لعدد كبير منهم، كما أنّ تلك المجاعات والأوبئة التي أبانوا من خلالها على دور اجتماعي كبير، قد حصدت أرواح الكثير منهم وألحقتهم بعداد الهلكى من أفراد المجتمع الآخرين.

وقابل أفراد المجتمع تلك الأخلاق التي عاملهم بها العلماء والأدوار والخدمات التي قدّموها لهم بالاحترام والتقدير وحفظ للجميل، وتجلّى ذلك في إظهار مودّتهم وتميّي رؤيتهم والاجتماع بهم، والحزن على فراقهم الذي كان امتلاء الطرقات في جنازتهم أحد مظاهره وصوّره، كما كان حفظ ذكراهم وتوقير أسرهم بعدهم يُعبر أيضاً عن المكانة التي حظي بها علماء تلمسان في أعين مجتمعهم.

وكان دور علماء تلمسان العلمي هو الأساسي بين تلك الأدوار التي قاموا بها في بلاد المغرب الإسلامي؛ وذلك باعتبار تكوينهم العلمي الذي جعلهم يحتكون بهذا الجانب أكثر من غيره. وقد أبان علماء تلمسان عن تمكّنهم ونبوغهم في عدّة علوم خاصّة دينية منها: ممّا يؤهم لأن تكون لهم مكانة علمية راقية جعلتهم نجوماً في سماء العلم ببلاد المغرب الإسلامي ومقصداً لطلبتة والراغبين في الاستزادة منه. وقد